طوبى للفقراء

بقلم: بروچين بهاتاشاريا

كان اليوم يوم نهاية الأسبوع.. والسوق لا حركة فيها، وكما هي عادتي ذهبت يومئذ لأقوم بجولة في هذا المكان الجديد.. إن مثل هذه الجولة قد تعين المرء علي إيجاد أصدقاء ومعارف حيثما ذهب. وهذا أمر أوضح ما يكون بالنسبة لأني كنت جديداً في هذه الجهة، فأنا مندوب تجاري متنقل، أو إذا شئت الدقة وكيل شركة أدوية، وأحتاج أن أعرف شيئاً عن الناس وأحوالهم في هذه المنطقة التي يتزايد فيها العمل.

ولما كنت لا أعرف أحداً وليس بي ميل لأفاضل بين لقاء هذا الرجل أو ذاك، فقد اخترت الدخول إلى أول دكان صادفني في طريقي، وكان مخرن عطارة، أو «صيدلية شعبية».

وما كدت أخطو إلى الداخل حتى هممت بمغادرتها، غير أن هذا العزم جاء متأخرًا، فقد أطل شخص هزيل طويل الرأس غائر العينين من خلف قطعة مهلهلة من القماش لعلها كانت ستارى يوماً ما.. ورمقتني عيناه من هامتي إلى قدمي، وتحركتا في جوف الظلام حركة يمكن ترجمتها بأنها تشير إلى أن انتظر.. ثم قال:

– نعم يا سيدي؟ ماذا أجهز لك؟ مريتا سنجياني؟ ساريبادي؟ سلسلات؟ دراكشا ريستا؟ أم تريد تحويجتنا المشهورة.. «المودالك»؟

قلت:

– لا، لا شيء من هذا، لا تتعب نفسك.. إنما أريد فقط أن أرى «الحكيم« صاحب المحل.

فقال على الفور:

– لا عليك يا سيدي. أنا هو «الحكيم».. تستطيع أن تطمئن إلي، وتصارحني بما تريد. إننا نشخص المرض ونعرف الأعراض من أول نظرة، ونعالج من الأساس..

– أنا لا أعاني من حالة مرضية يا سيدي، ولا أنا أريد شيئاً من وصفاتك العظيمة. إني مندوب شركة بنغال الحديثة للعقاقير الطبية قلت هذا على الفور حتى لا يشطح في ابتئاسه.

واسترسلت قائلاً:

– إنني أنزل في فندق «بهوواتي» عند ناصية الشارع إلى اليمين، وقد فكرت في أن أعرج على هذا المكان لنتسلى بالحديث..

فنظر إلى الرجل نظرة لا تخلو من خيبة الأمل، ولا تخلو من الغضب، وقال بما يشبه التهكم:

– هذا تلطف منك يا سيدي، مستر مالا أدري باسمه، مندوب العقاقير الطبية.. أن مندوبي العقاقير الطبية أرفع بألف قدم منا نحن حكماء العطارة المساكين، وما كنت أعلم أن تتنازل فتزورني، لمجرد التسلي بالحديث!

واعتمد بهوجانج موهان سن – وهذا اسمه كما قرأته على اللوحة – اعتمد بجانبه على تختة خشبية واستأنف قائلاً:

– لطيف منك يا مستر – معذرة ما هو اسمك؟ نعم سابود ميترا.. لعل زائر جديد هنا، أليس كذلك؟ إني أعرفكم جميعاً، فأنتم تأتون إلى هذه المدينة ثلاث مرات في العام. تسألني كيف عرفت؟ سلهم هم يا سيدي عن ذلك، فهذا أفضل!

ونظر الرجل في هذه المرة نظرة ماكرة، وقال:

– إنهم وكلاء عقاقير وأدوات طبية.. ولكنهم لأجل شيء واحد يأتون إلي، أنا الحكيم المسكين، ألا تصدق؟ إني ذاكره لك.. إنه «الموداك».. هو الذي يأتي بهم إلى هنا..

واتجه الحديث وجهة لم أكن مستريحاً إليها.. وبخاصة أنني بشم مختنق من جراء ترديد ما أختزنه من أوصاف وعبارات أزكي بها ما تقدمه الشركة من الفيتامين بي كومبلكس، والكالسيوم، والهيد بروتين، وقلويات معادلة الحموضة، والأمصال، والفاكسينات..

وقد رأيتها فرصة سانحة بعد هذه الوقفة القصيرة أثناء تبادل الحديث، لأحاول أن أحوله عن الاسترسال في هذا الموضوع الذي أضيق به، وأجعله يأخذ في موضوع آخر، وأخذت أفكر في موضوع يكون أكثر استهواء له فخاطرت بسؤال وجهته إليه قائلاً:

– أحسب أنه لابد أن تكون لك أسرة.. ولكني لا أرى عند أحداً من أولادك..

فانصرف باهتمامه إلى ما قلته وعقب عليه قائلاً:

– أسرة؟ وأولاد؟ إني أعترف بأنه تساؤل طبيعي في الصميم ولكن هل تظن أني أستطيع أن أمدهم بما يحتاجونه إذا أبقيتهم هنا؟ لا يا سيدي.. إنني بالجهد أحصل على ما يكفيهم في وجبتين فقيرتين طول اليوم في بيتنا الريفي. ولهذا أقول أنك، أقصد عقاقيرك الإنجليزية، هي المسئولة عما نعاني منه من ضنك..

وظهر عليه ما يشبه الألم والحسرة وهو يقارن بين حال طائفة من «الحكماء البلدي» وبين أصحاب الأدوية المستوردة.

وقلت له محاولاً التسرية عنه:

– أجل هو ذاك.. ولكن ماذا تستطيع أنت أو أستطيع أنا أن نصنع في هذا الزمن من الـ..

وبدا لي أني اخترت الكلام المناسب.. وفعل هذا الكلام فعله في نفسه، فغرق «الحكيم» في مقعده وأطلق تنهيدة طويلة. وقال:

نعم، أنت على صواب يا صديقي الصغير.. أي عصر هذا الذي نعيش فيه! أن ثمن الساري الواحد أصبح لا يقل عن عشر روبيات!

***

واستعان بذاكرته على استعادة ما كان في تلك الأيام الذهبية البعيدة، حين كان القنطار من الأرز يشترى بخمس روبيات والساري الجميل بروبيتين!

وذكرته تلك الأيام الجميلة أيضاً بالدخان الوطني الرخيص الذي يؤدي مهمته بغير أن يرهق الجيب.

ونظر نظرة يأس وضيق وتنهد مرة أخرى.. لقد كان من الواضح أنه يشكو من قلة الدخان.

وجعلني هذا الخاطر أنا أيضاً بالحاجة إلى التدخين، ولما أخرجت علبة سجائري رأيته يرمقها بنظرة متلهفة لم يفعل مثلها أحد من قبل!

وقدت له سيجارة، وجعلت أشعل لفافتي عل مهل. وبينما هو ينتظر عود الثقاب بفروغ صبر، رأيته يتمتم قائلاً:

– إني لا أحب هذه الأشياء الأجنبية.. ولكن على كل حال ما دمت قد قدمت لي سيجارتك..

هكذا قال، ومع هذا رأيته يرتشف أنفاسها بتلذذ ونهم.. وامتنان!

واستأنف يقول:

– إني آسف لأني لم أقدم لك شيئاً مناسباً.. ولكني أظن أني أستطيع أن أعد لك قدحاً من الشاي.

والحقيقة أني لم أكن راغباً في البقاء أكثر مما بقيت، ولكنه أصر بقوله:

– لا يا مستر ميترا؟ هذا ما لا أسمح لك به.. فلا أنت بعميل ولا أنت من سكان المدينة.. ويجب علي أن أكرمك بقدر ما أستطيع.

واختفى خلف الستار، ورحت أنا أستعرض الأسماء المكتوبة على بطاقات الزجاجات المغطاة بالأتربة.

***

وبعد نحو عشر دقائق دعاني إلى الدخول عنده.

وكان ذلك المكان يذكرني بشكل الجب المظلم.. كان في جانب منه موقد مشتعل.. ولما اعتادت عيني الرؤية في ظلمته، رأيت شيئاً يشبه السرير السفري المتداعي للسقوط، وتحته صندوق من خشب وصفيح صدى.. وفوق حبل مشدود تتدلى بعض الملابس القذرة التي يخيل إلي أنها لم تعرف يوماً الطريق إلى الغسل والتنظيف.

وكان الجو مشبعاً بخليط من الروائح المنفرة.. رائحة الأعشاب الطبية، والزيت، والقذارة، والرطوبة والطعام المتخلف.. ولعل الرجل قد أدرك ما أعاني فعرض أن يأخذ أدوات الشاي إلى خارج هذا الركن.. وكانت هذه الأدوات تتكون من وعاء أظنه يستعمل في طهو الأرز أيضاً، وكوزين من الصفيح ذهي طلاؤهما وظهرت فيهما الندوب، وقطعة متسخة

من القماش هي في الغالب «المصفاة»، وربطة صغيرة مفروض أنها تحول السكر.. أما اللبن فهو الذي بدت آثاره على الأرض مع نفاية الشاي!

ولما فتح الرجل اللفافة برفق، رأيتني أتقزز وأنا أراه قد أخرج منها قطعاً من «الجلاب» الأحمر الرخيص، عوضاً عن السكر!

وربما كان الرجل الكريم قد أدرك في تلك المرة أيضاً ما كان يدور بخلدي، فمد يده مسرعاً إلى علبة صغيرة يبحث فيها عن قطعة من النقود ليشتري بها بعض السكر.

وبعد البحث الطويل، أدركت من نظراته أنه قد أخفق وأكدها هو بإشارة يائسة وقال:

– لم أجد شيئاً يا سيدي، ليس لك حظ فيما أظن.. لم أجد مليماً واحداً (بايس) وما عليك الآن إلا أن تتناول الشاي كما أفعل أنا.. بالجلاب بدل السكر.. إني لا أستطيع أن أحصل على ضروریاتي.. لقد اعتدت أن أروض حتى الجوع..

وأشار بيديه موضحاً كيف استطاع أن يروض نفسه على الجوع وسارعت فقدمت له قطعة نقود ذات ثماني أنات؛ أي نصف روبية، وهي التي وقعت في يدي وأنا أدسها في كيس نقودي.

وشاعت الغبطة في وجهه، وهرول إلى الخارج وعاد في طرفة عين، ومعه حفنة من السكر لا تساوي إلا أنة واحدة، وجهز الشاي بعناية.

ولكن الرائحة كانت لا تحتمل، في حين ناولني الرجل نصيبي من الشارب وأنا لا أطيق أن أتجرعه.. وجعلت أفكر ماذا أصنع لأتجنب هذا العذاب وأتخلص من هذا المكروه.. ومن رحمة القدر بي أن «الحكيم» بنفسه قد أتاح لي الفرصة من حيث لا يدري، فقد فرغ من ارتشاف شايه وانهمك في غسل وعائه مولاً إياي ظهره، فأسرعت وصببت وعائي في البالوعة وأشعلت سيجارة لأطرد عن أنفي الرائحة.

واعتدل الرجل ثانية وأخذ «الكوز» بعيداً، وقطب جبينه مصطنعاً الإباء وطلب سيجارة ليدخنها، بلهجة تمثيلية يدار بها غبته، جعلتني أوشك أن أنفجر ضاحكاً، لولا أنني كزرت على شفتي وأخفيت حركة فمي. ولم يلحظ هو شيئاً فقد كان في واديه الحالم يتلذذ بأنفاسها!

أمضيت لديه نحو الساعة، واستعددت لكي أنصرف وأنا أفكر فيما تبقى من نصف الروبية، لماذا لم يعد إلي!

واضطررت أن أتلكأ عنده أكثر من خمس عشرة دقيقة أخرى وأنا أشر من بعيد إلى ما قد يحمله على رد الأنات السبع، ولكنه كان قد أغفل المسألة تماماً. وإذ فقدت الأمل في الحصول عليها، أقنعت نفسي بأن الرجل قد فعل ذلك عامداً.

وبينما أنا أهم بالانصراف رأيته ينادي بائع الخضر، ويساومه محتجاً على غلاء ثمن البطاطس!!

***

وجاء يوم زاولت فيه العمل الروتيني المعتاد، حتى فرغت من التحدث إلى آخر طبيب زرته، ومن محاولة إقناعه بفاعلية أدويتنا وأفضليتها على ما عداها، ما دامت تحمل ماركة شركتنا التي ليس لها مثيل، ورحت أقوم بجولة للقاء الصيادلة وسؤالهم عن طلباتهم من الشركة.

واندمجت في مناقشة حارة مع نجل أحدهم إذ كان يجاهر بأنه يفضل البضاعة الأجنبية غير المضمونة على بعض الشركات الوطنية غير المعروف ما دامت تقدم له عمولة كبيرة، ولا يهمه أننا نستطيع أن نقدم له البضاعة المضمونة بالثمن المناسب!

وتوقف الإبن فجأة في أثناء كلامه الذي يتمسك فيه بوجهة نظره، وخطا إلى الخارج ليحتفي بقدوم «زبون» ظاهر الوجاهة والثراء.

ولكني كنت مخطئاً في حدسي.. فليس هناك عميل مهما تكن درجة غناه يمكن أن يظفر بمثل هذا الاهتمام وهذه الحفاوة من مستر «بيلاس سنج» الصغير. أهو صديق له أذن؟ ربما.. أنني لم أكن متأكداً.

وبعد نحو نصف ساعة خرج الوجيه متبوعاً بالمستر بيلاس، والبهجة بادية على وجهيهما.

ولما تجاوز الزائر الجديد الظل وهو يخطو خطواته إلى الخارج، إلى أن أصبح في مواجهتي، فوجئت به وشدهتني رؤيته.. فقد كان هو زميلي القديم في الكلية «دبين جانجولي»!

وإذا هو يهتف بي قائلاً: «هالو!.. أيها الصديق القديم، ألا تعرفي؟».

كان هو أيضاً قد فوجئ بي، فما كاد يراني حتى تطلق وجهه اغتباطاً بهذه المصادفة.

– من كان يحلم بمثل هذه المصادفة التي لا تعقل.. تعال يا «ولد». ماذا جاء بك إلى هنا؟!

ولما شرحت له عملي عقب قائلاً:

– يا الله!.. الطيور تقع على أشكالها. ولكن لا، مازالت المقارنة مختلفة. فأنت تقيد «الطلبيات»، أما أنا فمهمتي التوريد.. وأقول لك حتى تكون على علم من أحوالي أني مورد كبير للأدوية.

وغمز بعينه وهو يشدني معه إلى عربته..

ولما حاولت الاعتذار ألح علي قائلاً.

– لا، لا مجال للاعتذارات، تعال إلى الفندي لنحمل منه حقائبك ولم يكن أمامي إلا أن أطيع، فذهبنا إلى النزل وحملني الرجل على حزم أمتعتي، والتفاهم مع مدير الفندق لترك الغرفة، وجاء الحمال فنقل الحقائب.

كان البيت جميلاً حديثاً مؤسساً أحسن الأثاث ومزوداً بأفخر الرياش.. وكانت «لدبين» زوجة صغيرة ورقيقة، اشتركت معه في الترحيب بي أحمل ترحيب، ولم أكن حتى ذلك الوقت قد واتتني فرصة لأساله كيف وصل إلى هذا الجاه العريض والثراء الكبير في فترة قصيرة لا تتجاوز عشر سنوات.

وكان ينبغي في الظروف الطبيعية أن أحسده وأغار مما سمعت من قصة نجاحه. ولكنه كان طيباً ولطيفاً معي إلى درجة أني نفيت من صدري كل عاطفة غير كريمة، وتمنيت له كل خير..

***

وقد قمت أنا أيضاً بعمل طيب لم أكن أنتظره، فعن طريق نفوذه الشخصي ومكانته أفدت كثيراً من مصاحبتي له في جولاته.. فهذا الابن ايلاس سنج نفسه الذي كان يعاركني ويتهرب مني، قدم لي مبلغ ٥٠٠ روبية عربوناً لبضاعة، وكثير من الأطباء ممن لم يكن لديهم وقت لمقابلتي، قابلوني بترحيب وأبدوا سعة صدر وهم يصغون إلى ما أعرضه عليهم، مظهرين موافقتهم واقتناعهم بكلامي. ونجحت في معظم جولاتي وشعرت بأني مدين بالشكر والنجاح وعرفان الجميل لهذا الصديق العظيم.. «جانجولي».

وشيئاً فشيئاً بدأت أعلم أنه كبير الأعضاء في المجلس البلدي، وله اليد الطولى في كل عمل محلي، وصديق شخصي حميم للمأمور، وذو نفوذ كبير في دوائر البوليس!

وكنت سعيداً إذ استطعت أن أمد أيام إقامتي في المدينة، وكان عندي المبرر الكافي لهذه الإطالة، فعملي في هذه المنطقة مطرد في النجاح والشركة قد سرها أن توافق على رغبتي.. ولكن مضت الأيام وبدأت أتأهب لمغادرة المدينة على غير رغبة مني، لأتنقل من محطة إلى محطة.. حيث لا مفر من دفع ما لا يقل عن خمس روبيات كل ليلة لطعامي ونومي!

في تلك الليلة دعاني «جانجولي» إلى غرفته الخاصة:

– حسناً يا عزيزي، إذا لم يكن لديك مانع فاذكر لي كم تتقاضى من هناك.. أقصد من الشركة التي تعمل فيها؟..

وابتسمت وقلت:

١٥٠ روبية زائداً ٨ روبيات علاوة يومية، ثم أجر السفر.. وفكر قليلاً، وقال:

– فهمت، إنك لا تكاد تتمكن من توفير شيء من العلاوة اليومية!

وشعر

– بل إن علي أن أفعل، فلدي أسرة تتطلب الكثير من النفقات، كما لعلك تعلم.

– نعم.. نعم..

وعاد يفكر وأخرج قلمه الذهبي وأخذ يرسم به أرقاماً، ويحسب.. ثم نظر إلي في وجهي مباشرة وقال بلهجة جادة:

– لم لا تلتحق إذن بشركتي؟ سأدفع لك ضعف هذا المبلغ، فضلاً عن عمولة بواقع واحد في المائة عن صافي البيع.

لقد مرت بي أوقات هممت فيها بأن أرجوه أن يجد لي عملاً.. أما أن يجيء العرض منه هو فإن ذلك كان مفاجأة لي، ومع ذلك منعت نفسي لكي لا أندفع وأفقد رباطة جأشي، ورحت أحاول الرد:

– ألتحق بعمل عند صديق؟.. هذا كما نعمل...

ولكن الدم اندفع إلى وجهي، وهرب مني الكلام..

وأسرع هو يشجعني وضرب المنضدة بقبضة يده وقال:

– لا.. لا يا سابود، فإنما أنا أحتاج إلى شخص أمين موثوق به! وأنت تحتاج إلى عمل مناسب يعود عليك بكسب أكبر، أليس كذلك؟ هيا هيا يا فتى. العمل عمل. أنا لا أصنع إحساناً. هل تفهمني؟

وقرب علبة سجائره إلي، وأخذت سيجارة بغير أن أدري ماذا أقول..

– حسناً. أنت الآن معي. عال، ستكون أنت المسئول عن مصنعي وقلت متعجباً:

– أي مصنع؟ لقد قلت أنك تاجر مستورد...

– نعم أنا كذلك بكل تأكيد. ولكن كيف أتصرف لأكون هكذا؟ إن علي أن أعيد تعبئة البضاعة للبيع. أليس كذلك؟..

واعتدل في جلسته وأضاف بلهجة جادة:

والآن إلى العمل يا صاحبي.

– ولكني لا أعرف شيئاً عن عمل المصانع..

– لا يهم يا رجل. فلدي رجالي المدربون لهذا العمل. إن مهمتك ستنحصر في الإشراف على عملية تلبية الطلبات وإتمام التوريد في المكان والزمان المتفق عليهما.

ثم استرسل قائلاً:

– والآن كما أخبرتك، سأكون صريحاً معك. أنت درست الكيمياء في هذا الفرع ذاته، ولذلك فستنهض بهذا العمل على أفضل وجه. إني واثق من هذا..

واستطرد وأنا أصغي إليه مشدوهاً والسيجارة تهتز في فمي:

– إن مهمتنا الرئيسية هي مليء الزجاجات الفارغة والعلب كيفما كانت وحيثما وجدت.. ثم نلصق عليها البطاقات..

وحسبت أنه يهزل معي. ولكني نظرت إلى وجهه فوجدته جاداً صارماً!

وعاد هو يقول:

– يظهر أني لم أوضح الأمر تماماً. حسناً، إني أجمع الزجاجات والأوعية الفارغة مما يأتي مع البضاعة الأجنبية، وأملأها أنا ببضاعتي.. بالدواء الذي أعده في مصنعي، وأبيعها على أنها بضاعة مستوردة، مع تخفيض في الأثمان، هل هذا واضح؟

واضح نعم.. واضح وضوح الماء المقطر الذي يعبأ في بعض الزجاجات مع الحقن!

وانقشع الضباب الكثيف عن عيني، وغلا الدم في عروقي. وبغير أن أشعر رفعت «تقالة» الورق وهممت بأن أقذف بها في وجه الرجل بكل قوتي.. ولكني أمسكت يدي وجلست محنقاً أتفجر غيظاً..

ونظر إلى «جانجولي» بعض الوقت ببرود، ثم قال في سخرية:

– أنت ضعيف.. في منتهى الضعف كما يبدو لي..

وحاولت أن أدمغه بكلمة «قاتل.. مجرم»، ولكن الموقف كان قد عقل لساني..

ونهضت في النهاية كالسكران، وأفضيت إلى الشرفة، وهبطت السلالم إلى غرفتي لأخذ حقائبي..

وطلبت من سائق «الركشو» أن يسرع بي إلى محطة السكة الحديدية، وكنت مشتت الفكر غائباً عن وعيي فلم أكن أدري أي طريق أسلك..

***

ودفعة واحدة وجدتني أعود إلى نفسي عندما توقف السائق بي فجأة..

ورأيت «الحكيم» الهزيل يقف في مواجهتي يهزني ويحدثني..

ورأيته يدس قطعة نقد من ذات الثماني أنات في يدي، ويقول:

– هل أنت أصم، يا مستر ما لا أدري اسمه؟ أي رجل أنت يا سيدي؟ هل كنت تريدني أن أموت وأنا مدين؟!! أين اختفيت كل هذه المدة، هكذا فجأة؟

وبينما رحل أعتذر له كانت عيناي وذاكرتي تستعرضان حانوته الحقير الفقير المحمل بالأعشاب التافهة والبضاعة الرخيصة..

حانوت قذر رخيص حقير، ولكنه لا يحوي فيما يحويه أي غش، أو خداع، أو كسب حرام..

فقير، أجل... ولكن... وطبى للفقراء!

– يا بنيتي... لقد كانت ثورة شباب... ثورة طائشة كنت أنا وقودها... وأنا قربانها!...